النثر والشعر

« كلما أراد الإنسان أن يعبر عن إحساس حقيقي رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئاً عادياً أقل مما كان ينتظر ، ووجد أن أحسن ما فى نفسه بقى فيها مختفياً . . لتصوير إحساس كامل وتمثيل أثره فى صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة ، ألفاظ غير العتيقة البالية ، يلزم اختراع ألفاظ جديدة » . (قاسم أمين)

ملأنا طِباق الأرض وجداً ولوعةً ... بهندٍ ودَعْدٍ والرباب وبوزع
وملّت بناتُ الشعر منّا مواقفا ... بسقْط اللِّوى والرَّقمتين ولَعْلع
تغيّرت الدنيا وقد كان أهلها ... يرون متون العِيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيراً وأينقا ... متى يُعيها الإيجاف فى البِيد تظلع
فأصبح لا يرضى البخارَ مطيةً ... ولا السّلك فى تيّاره المتدفع
ونحن كما غنّى الأوائل لم نزل ... نغنى بأرماح وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشىء القديم فهل مدًى ... لشىء جديد حاضر النفع ممتع

(حافظ إبراهيم)

هذه الأبيات من حافظ إبراهيم ، وتلك الكلمة من قاسم أمين ، صيحتان صريحتان بالشكوى من حال الكتابة العربية نثراً وشعراً . وكل الفرق بينهما أن كلمة قاسم أمين قيلت من ربع قرن أو أكثر ، وأن شكوى حافظ لما تمض عليها بضع سنين . وليس مقام حافظ فى الشعر بمنكر . وقاسم من المُقدِمين فى تجديد الكتابة العربية ، بل أولهم وأكثرهم جرأة وإقداماً . على أن هذه

الشكوى لا يقف أمرها عند حافظ أو قاسم ، بل هى تجيش بنفس كل كاتب قوىّ الشعور دقيق الحس واسع الاطلاع ، وبنفس كل شاعر سمت شاعريته عن أن تقف عند ترديد الأشعار القديمة بقواف جديدة ، وعند سبك الصور والأفكار والمشاعر القديمة فى قوالب ربما فاقت القوالب الأولى بهجة ، ولكنها ليست لذلك ذات فضل ؛ لأنها فى الواقع ليست إلا محاكاة وتكراراً . ومحاكاة الإنسان للإنسان لا تحتاج إلى نبوغ وإن احتاجت إلى ذاكرة ، ولا تصل إلى مقام العبقرية وإن خلبت الأنظار فجأة بلألاء بريق سرعان ما يخبو إذا تعرض للنقد الصحيح .

وإنما يقدر ملاحظة قاسم أمين أولئك الذين لم تحبسهم معارفهم وثقافتهم فى حدود هذا الماضى الذى أشار إليه حافظ إبراهيم ، والذين اطلعوا على مختلف صور تفكير العالم ووقفوا على أدب الأمم المختلفة ؛ هؤلاء يرون أن المدارك والإحساسات الإنسانية ليست جامدة ولا يمكن أن تكون كذلك ؛ لأنها خلق البيئة المحيطة بالإنسان . وقد كانت هذه البيئة فى الماضى ضيقة محصورة فى حدود القرية أو القطر من أقطار الأرض الذى يعيش فيه الكاتب أو الشاعر . أما وقد أصبحت الإنسانية كلها بيئة واحدة للعالم أو الكاتب ، وأصبح من اليسير أن يطلع كل مثقف على آثار الفكر والشعور الإنسانى فى الأمم المختلفة فقد اتسعت المدارك ودقت درجات الشعور ، وأصبحت ترى بين الميل لشخص ومحبته وبين العطف على شخص والإشفاق عليه ، وبين النفور والكراهية ، وبين الخجل والخوف ، وبين التردد والجبن ، درجات متميزة فى الإحساس تدركها النفس إدراكاً دقيقاً ، وتعبر بعض اللغات عن كل منها تعبيراً يحددها لك تمام التحديد . ثم ترى نفسك مطالباً بأداء ذلك فى اللغة التى تكتب بها وهى اللغة العربية ، فتشعر بالعجز ، وترى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنك قلت شيئاً عادياً ، وأن أحسن ما فى

نفسك بقى فيها مختفياً . بهذا الإحساس يشعر الذين يقرءون ثمرات العلم والأدب الحديث فى مختلف اللغات ، سواء وقفوا عليها فى كتبها الأصلية أو مترجمة إلى اللغات التى صقلت حتى صارت تتسع لكل ألوان الفكر وصور الشعور . وأنت أكثر ما يتولاك العجب حين ترى جماعة من أكابر الكتاب الضليعين فى اللغة العربية الواقفين على آداب الأمم الأخرى وهم يعالجون العثور على اللفظ العربى المقابل للفظ أجنبى يعبر عن فكرة أو إحساس فلا يجدونه ، بل لا يجدون جملة مركبة تفيد بالدقة المعنى الذى يقصدون إلى تصويره .

على أن الكتاب الضليعين فى العربية والواسع اطلاعهم فى اللغات الأخرى ، مافتئوا إلى اليوم ومنذ قاسم أمين وقبل عصره ، يجاهدون لما أسماه قاسم : « اختراع ألفاظ جديدة » وإن كانوا قد سلكوا سبيلهم إلى هذه الغاية بإحياء ألفاظ قديمة وإلباسها أثواباً جديدة تعبر عن الأفكار والإحساسات الجديدة ، آخذين فى ذلك مأخذ كل الأمم ، قانعين من التجديد – بمعنى الخلق دون البعث – بالألفاظ الأجنبية التى لا رجاء فى وجود مقابل لها فى العربية ، لا أن يكره لفظ قديم على تحمل الصورة الجديدة إكراها سخيفاً . ولقد عالج بعض أنصار القديم من الكتاب هذا الإكراه فأخفقوا فيه ؛ لأنه مناف لطبائع الأشياء ، فمقضىٌّ عليه بالإخفاق لا محالة .

على أن هؤلاء المجددين المجاهدين فى سبيل إحياء اللغة العربية حياة صحيحة إن لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى الكمال فهم قد قطعوا فى سبيله شوطاً بعيداً . وحسبك مقنعاً بهذا أنك لا ترى كاتباً منهم يعارض فى أسلوبه أو فى تفكيره أو تعبيره عن الشعور والإحساس واحداً من الكتاب الأقدمين . والناس إذ يتحدثون اليوم عن هؤلاء الكتّاب لا يتحدثون عن معارضة العقاد للجاحظ ، ولا طه حسين لابن المقفع ، ولا مصطفى عبد الرازق لعبد الحميد

الكاتب ، ولا غير هؤلاء من كتاب العصر الحاضر لواحد من كتّاب العصر القديم ، وإنما يتكلمون عن أسلوب العقاد ورأيه ، وأسلوب طه حسين ونظراته ، وأسلوب مصطفى عبد الرازق ودقته وظرفه . بل إن من لا يزالون يسمون أنفسهم أنصار القديم من الكتاب ، أمثال مصطفى صادق الرافعى وصادق عنبر وغيرهما ، قد أثرت فى أسلوبهم وفى تفكيرهم حركة التجديد هذه تأثيراً عميقاً ، حتى أصبح الجديد طبيعة نفوسهم ، وأصبح ما يقتفون فيه أثر القديم ظاهراً فيه التعمل والصناعة والتكلف ، فما يكاد الواحد منهم يترك نفسه على سجيتها حين يكتب حتى تراه يعيش فى هذا العصر الذى نحن فيه ، يكتب بأسلوبه ، ويفكر بتفكيره ، ويرى ما يراه من ألوان الإدراك والحس المختلفة . ونحسب أنه لولا بقية من الحرص على ماض امتازوا فيه على غيرهم من الكتاب حين كان تقليد الأقدمين امتياز شعرائنا فى الحاضر امتيازاً يرونه مجدهم وفخرهم ، إذن لرأيت الرافعى وغيره من أصحاب مذهبهم انخرطوا فى سلك المجددين انخراطاً . ولعل لهم عن ذلك من العذر أن الإنسان لا يستطيع ، وإن حاول ، أن ينسى ماضيه أو أن ينكره .

وليس عجيباً أن يتأثر أنصار القديم بحركة التجديد ، بل العجيب ألا يكون ذلك . فالحياة دائمة التطور ، والجديد هو آخر مظاهرها . وهذا وحده هو السبب فى أنه جديد ، فإذا انقضى عصره وأحدثت غِيَرُ الحياة جديداً بعده أصبح هو قديماً . وما دمت تعيش فى عصر فأنت متأثر حتماً بحياة هذا العصر ، متأثر بالجديد الذى يحدث فيه . على أن كل عصر يتصل بما قبله اتصال البنوة بالأبوة والوارث بالمورث . ولن يتحلل الابن من آثار آبائه وإن هو حاول ، ولن يستطيع أن يكون صورة مضبوطة منهم وإن هو حاول كذلك . بل إن محاولته الأخيرة لتظهره فى ثوب أنصار القديم من التكلف والصناعة ، كما أن محاولته الأولى ، وإن نجح فيها ، تظهره

فى ثوب من التكلف إن اختلف عن ثوب القدماء فهو ليس أقل منه استدعاء للسخر . ولعلك لا ترى فرقاً كبيراً بين ما يتركه من الأثر فى نفسك رجل يلبس اليوم رداء الأقدمين ويسير مسيرتهم ، وآخر يبالغ فى تقليد آخر طراز إنجليزى بالحديث والتحية والعبارة .

ولذلك أيضاً أخفق المجددون الذين أرادوا قطع الصلة بين حاضر اللغة وماضيها ، ورجع أكثرهم إلى الدائرة التى يعمل فيها المجددون بعقل وحكمة ، حتى قطعوا منها فى سبيل إحياء اللغة العربية شوطاً بعيداً . رجع أولئك إلى هذه الدائرة . كما تقدم إليها أنصار القديم خطوات واسعة . والحق أن هؤلاء المستبصرين من الكتاب قد بعثوا اللغة العربية بعثاً جعلها أداة صالحة لحياة الشعوب التى تتكلم بها . ولا حاجة إلى ضرب الأمثال ؛ فكتب العلم والأدب التى أبدعوا فيها متداولة فى أيدى الناس جميعاً يتلون فيها أسلس الكلام وأصحه وأدقه عبارة فى نقل ما استحدثته الإنسانية من جديد صور الحياة وكل ما كشف عنه العلم من نظريات . وليس يعرف مبلغ العناء الذى يحتمله أولئك الكتاب ومبلغ الجهد الذى يبذلونه إلا من رآهم يعتصرون أدمغتهم وقلوبهم يريدون أن يصوروا لقارئهم المعنى الذى يدور بخاطرهم أدق التصوير . وأشد عنائهم حين يتصل المعنى بصور مختلفة من ثقافات الشرق والغرب جميعاً تتسع له اللغات التى صقلت فى القرون الأخيرة بل توحيه ثم لا يجد الكاتب نطاقه المضبوط فى اللغة العربية . إذ ذاك يجاهد ليبعث الألفاظ القديمة فيصبها فى بوتقة التجديد لتبدو فى صياغتها الجديدة أكثر مما كانت بريقاً وأشد دلالة على المعانى التى يراد أن تدل عليها من غير أن يشوبها لذلك كدورة أو اضطراب .

مع هذا الجهاد الذى اقتضته طبيعة حياة اللغة العربية فى العصور الأخيرة فما يزال النثر لما يبلغ الشأو الذى نرتجيه له ، ولما يصل

إلى التعبير عن أفكارنا وعواطفنا واحساسنا تعبيراً دقيقاً ، وما يزال كثير من الكتاب يعدلون عن تدوين فكرة من أجلِّ أفكارهم ، أو رواية عاطفة من أدق عواطفهم وأعمقها ، أو تصوير حس من أجمل إحساساتهم وأسماها ؛ لأنهم يرون أنفسهم بعد طول الجهد وكثرة الكلام إنما قالوا شيئاً عاديًّا ، وأن أحسن ما فى نفوسهم بقى فيها مختفياً . على أن هذا الجهاد قد طوع لهم مع ذلك أن يطرقوا من الأبواب التى اقتضتها حياة العالم فى العصور الحديثة ما لم يطرقه الكتاب الأقدمون . وليس من الغلو فى شىء القول بأن أكثر ما طرقوا من الأبواب لم يتعرض العرب له إلا عرضاً ؛ لأن التجديد لم يقف عند الأسلوب وكفى ، بل تناول طريقة البحث وألوان الحس ودرجات الشعور ، فصارت شيئاً مغايراً تمام المغايرة لما كان عند العرب ، واقتضت لذلك بناء للنثر جديداً ، وقد أصبح هذا البناء شامخاً ولكنه ما يزال فى حاجة إلى التعهد والصقل والصياغة وإلى السعة نفسها ، حتى يسع كل حاجات العقل والنفس والعاطفة فى أبعد مداها ومراميها وأعماقها .

* * *

هل بلغ الشعر مبلغ النثر فى التجديد ؟ وهل نستطيع أن نقول إن جهاداً شاقاً وجه إلى أية ناحية من نواحيه كما وجه إلى نواحى النثر ؟ وهل أتاح له هذا الجهاد أن يواتى حاجات الحياة الحاضرة بالمقدار الذى يواتيها النثر به ، فإذا انقضت أجيال وعرض أدب عصرنا الحاضر نثراً أو شعراً على ناقد دقيق تبين فيهما صورة العصر بمقدار متكافئ ؟ يجب قبل أن نبدأ هذا البحث أن نقرر واقعة متداولة على أنها حقيقة ثابتة . تلك أن الشعر العربى فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية بلغ شأواً لم يبلغه النثر ولم يطمع فيه ، وأن مكانة الشعر فى عصور بنى أمية وبنى العباس والأندلسيين كانت أسمى بكثير من مكانة النثر وأدنى إلى الكمال ، وأن الفلسفة والحكمة والتفكير والعاطفة والحس كانت

جميعاً تصاغ فى الشعر بخير مما تصاغ فى النثر . بل إن الشعر العربى كان هو الأدب العربى ، وإن النثر إلى جانبه كان مكملاً له غير مستقل عنه ، حتى لكان الكتاب يحلون نثرهم بما يرصعونه به من أبيات الشعر . فإذا كانت هذه الواقعة المتداولة حقيقة بالفعل ألا يكون من الواجب على الشعراء أن يقفوا مجهودهم عند بعث الشعر كما كان فى أزهر عصوره ، ليعيدوا للأدب العربى جدته ، وليكونوا قد سبقوا الكتاب إلى إحياء اللغة العربية وأدبها ، أو ليكون مجهودهم مساوياً لمجهود الكتاب فى التجديد ، ليكون حكم الناقد الذى يستعرض أدب عصرنا الحاضر على الشعر مكافئاً لحكمه على النثر فى تعبيرهما عن تفكيرنا وحسنا وعواطفنا ؟

لا ريب فى أن النظر إلى الشعر من هذا الجانب يجعلنا نقر للشعراء بفضل أى فضل . فليس من كبرائهم إلا من عارض أفخم قصائد كبار الشعراء فى الماضى ، فوفق فى معارضته أعظم توفيق ، وتفوق فى بعض الأحيان تفوقاً لا سبيل إلى إنكاره . وهؤلاء سامى البارودى وإسماعيل صبرى وشوقى وحافظ إبراهيم وأضرابهم من فحول شعراء العصر الأخير ، ولم يكادوا يتركون قصيدة من القصائد العربية الكبرى إلا عارضوها وزناً وقافية ومعنى ، فوفقوا وتفوقوا فى أحيان كثيرة . وسينية شوقى الأندلسية التى يعارض بها البحترى مشهورة . ومعارضة إسماعيل صبرى وشوقى لقصيدة : « يا ليل الصب متى غده » ما يزال الناس يتحدثون بها . أما البارودى فقد عارض كثيراً من فحول المتقدمين وفى مقدمتهم النابغة . وهذه القصائد وغيرها هى من طراز القصائد التى تعارضها لغة وأسلوباً بل معانى وصوراً ، حتى لكأنها قيلت فى تلك العصور التى قال أشباهها فيها البحترى والنابغة والحصرى وغيرهم من أكابر شعراء العرب . وإذن فقد بعث شعراؤنا العصريون ذلك الشعر العربى القديم بجزالته ومتانته .

بل لقد افتن شعراؤنا فى وصف المنشآت والحوادث بما ليس له مثال فى الشعر القديم ؛ لأن هذه المنشآت وتلك الحوادث لم تقع عليها أعين الشعراء الأقدمين ، أو لم يتعلق بها خيالهم أن لم يتعلق بها شأن من شؤونهم . ولست أنكر أنى أتذوق وصف حافظ إبراهيم لقصر الجزيرة الذى أصبح حديقة الحيوان ، كما أتذوق قصيدته فى نكبة مسينا بالزلزال ، وبخاصة حين يقول :

ربَّ طفلٍ قد ساخ فى باطن الأر ض ينادى : أمى ، أبى ، أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ ـر تعانى من حرّه ما تعانى
وأب ذاهل إلى النار يمشى مستميتاً تمتد منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه ، لا هو ناج من لظاها ولا اللظى عنه وانى

وكما أتذوق هذا الوصف لحافظ أتذوق كثيراً من شعر شوقى فى الوصف ، وبخاصة وصفه لتوت عنخ آمون حين تكلم عن صيده وكلاب صيده ، ووصفه لقصر أنس الوجود إذ يقول :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضا سابحات به وأبدين بضا
مشرفات على الزوال وكانت مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضا

ولست أنكر كذلك إعجابى الذى لا حدّ له بالشعر الوصفى فى وجدانيات إسماعيل صبرى وفى حماسيات البارودى . ولكنى أعود من هذا الإعجاب فأسائل نفسى : هل هذه القوافى التى ما نزال نحن مرتبطين بها منذ عهد العرب ، وهل هذه الصور التى أدت بحافظ إبراهيم إلى أن يقول :

* ونحن كما غنى الأوائل لم نزل نغنى *

وهل هذه القيود المعنوية التى تقيدنا فتجعل شوقى فى إحدى قصائده الفذة يذكر الهودج على أنه مركب أم المحسنين فى حين كان مركبها « أوتومبيلها » الفخم – أعود فأسائل نفسى : هل الإعجاب بهذه القوافى والصور والقيود راجع إلى أنها تؤدى حاجات النفس من إدراك وحس وعاطفة أداء صالحاً ؟ أم هو راجع إلى أنها تثير فى النفس ذكر ما حفظت أول شبابها من شعر كإعجابك بنغم القيثارة الريفية الساذجة بعد سماعك لألحان عبد الوهاب ، بل لموسيقى موزار وبتهوفن ؟ !

كنت أتحدث فى سنة ١٩٢٧ إلى جماعة من أصحابى وبينهم الشاعران الكبيران حافظ إبراهيم وخليل مطران ونحن على الباخرة النيلية « بريطانيا » فى النزهة التى دعت إليها لجنة الاحتفال بتكريم شوقى بك بين مصر والقناطر الخيرية ، وتناول حديثنا الشعر وما يحس الكثيرون به من أنه لم يسابق النثر إلى الخطوات التى يستطيع معها التعبير عن كل المعانى التى تجيش بالنفس على صورة تتفق ونغم الموسيقى الجديدة ولا تقف عند الأوزان القديمة التى يقولون إنها كانت تلائم سير الإبل خبباً وذميلاً . ولم يعترض الشاعران على هذه الملاحظة بل وافقا عليها ، وذكر أحدهما أن السبب فى جمود الشعر عند أوزان العرب ومعانيهم وقوف بعض الشعراء فى وجه كل تجديد وإعلانهم الحرب النكراء على كل مجدد . ولم ينس أحد الحاضرين أن يذكر كيف تطورت الأغانى العامية واتفقت مع الأنغام الحديثة ، كما أدمجت ، على ابتذالها ، كثيراً من صور الحياة الحاضرة ومستحدثاتها خلال ألفاظها ومعانيها . وما أظن أن أحداً يرتاب فى صحة هذه الملاحظات على الشعر العصرى وعلى وقوفه فى قوافيه وأوزانه وفى صوره ومعانيه عن مجاراة أنغام العصر وموسيقاه ، بل عن مجاراة الهزات الشعرية التى تجول بالنفس المثقفة بثقافة العصر الحاضر .

لقد تقف بين ألوف القصائد التى قيلت والتى تقال على أبيات بالغة الجمال تعبر بأبلغ عبارة عن أدق إحساس وأقواه ، لكن هذه الأبيات منثورة فى لجج مترامية انتثار الدر فى قاع البحر ، لا تعثر عليها إلا بعد جهد ومشقة .

وليس القصد من الشعر فى رأينا هو هذه الأبيات الفذة ، وليس هو محاكاة الأقدمين . وإنما القصد من الشعر إبراز فكرة أو صورة أو إحساس أو عاطفة يفيض بها القلب فى صيغة متسقة من اللفظ تخاطب النفس وتصل إلى أعماقها من غير حاجة إلى كلفة أو مشقة ، ثم ترتفع بها وترتفع أو تهبط وتهبط وأنت مندفع معها منساق وراءها ، متلذذ باندفاعك وانسياقك تلذذك بصوت المغنى أو بنغمة الموسيقى . وكما يسبقك المغنى إلى القرار أو السمو الذى تنساق إليه نفسك طائعة مختارة ، يجب أن يسبقك الشاعر فى فيض الحس أو الشهوة أو العاطفة ، وأن يشعرك من ذلك أضعاف ما تشعر به لو أنك كنت وحدك . وكلما بلغ الشاعر من ذلك مدى بعيداً ، وكلما استوت له فى ذلك النفوس جميعاً ، اقترب من ذروة مجد الشعر وغزر له فيض بناته وريّاته .

ولقد حاول بعض الشبان وما زال بعضهم يحاول أن يوفق لجديد فى الشعر يلائم بينه وبين روح العصر الحاضر ويصل به إلى هذا المدى الذى وصفنا . وفى هذه المحاولات جرأة وفيها جمال . لكنها لما توفق للطريق السوى ، فتعبر عن مدركاتنا وإحساسنا وعواطفنا بمثل ما وصل إليه النثر من قوة ودقة . وهى لما توفق للخروج بالشعر من هلهلته التى تجعل أكثر قصائده ليس بين البيت فيها وما بعده صلة ، حتى لتستطيع أن تغير مواضع الأبيات كما شئت دون خوف . ثم هى لما توفق لأوزان تخرج بها عن سير الإبل خبباً وعَنَقاً إلى شىء يتفق وأنغام موسيقى عصرنا الحاضر .

يوم يوفق الشعر لهذا الطريق فى تلك النواحى المختلفة ، ويوم يؤدى الغاية التى أشرنا إليها ، يكون قد وفق لأداء حاجات النفس أداء صالحاً . ويومئذ يسير مع النثر ويجاهد جهاده لصياغة اللغة العربية وصقلها بما يجعلها تواتى الكاتب والشاعر بكل حاجات العصر فى غير مشقة ولا عناء . لكن ذلك إنما يكون يوم تزول عن الشعر علته . فما هى هذه العلة ؟ وما هو سبب الجمود الذى أشرنا إليه فى هذا الفصل ؟